ظاهرة الحب في شعر خالد الكاتب

د. جميل سلطان محمد عثمان

أستاذ الأدب العباسي المساعد بقسم اللغة العربية

ملخص البحث:

الحب ظاهرة إنسانية استرعت اهتمام المفكرين والفلاسفة والعلماء، وكل فريق أدلى فيه بدلوه، وقال فيه رأيه ووجهة نظره، إما بتخصيص مؤلَّف مستقل فيه، أو بالحديث عنه ضمن ما أنتج من كتب أو رسائل، غير أن الشعراء كانوا هم أبرز من تحدث عن الحب، وعبر عنه، وكشف عن مكنوناته، وأفصح عما خفي من أسراره، وهذا الأمر هو ما يجعل البحث عن ظاهرة الحب في الشعر أمراً مشروعاً، ومن جاءت فكرة البحث عن ظاهرة الحب كما تتجلى في شعر أحد شعراء الغزل ألا وهو الشاعر العباسي خالد الكاتب ت263 هـ، وقد حاول الباحث الكشف عن هذه الظاهرة في شعره من خلال ثلاثة محاور عُني أولها بالحديث عن جناية عين المُحب على قلبه من خلال الشواهد الشعرية المفصحة عن ذلك، وعني المحور الثاني بالحديث عن جناية عين المحبوب على قلب مُحِبه من خلال الشواهد الدالة عليه، وجاء المحور الثالث ليعتني بالدرس والتحليل لظاهرة الحب كما تجلت في شعر الشاعر ومحاولة تفسيرها في ضوء المحورين السابقين اللذين برز من خلالهما تمحور ظاهرة الحب في علاقة العين بالقلب، وهي علاقة جدلية متوترة، يتبادل طرفاها أسباب الخصومة بين جان ومجني عليه، لكن الشاعر يفصل في هذه الخصومة ويعلنها صريحة أن العين هي الجاني على القلب، ومن خلال ذلك يمكن القول أن ظاهرة الحب في شعر خالد الكاتب قد انحصرت في هذه العلاقة الثنائية بين العين والقلب، ولم تتعدَّها إلى غيرها من الحواس.

المقدمة

استأثرت ظاهرة الحب باهتمام المفكرين والفلاسفة والعلماء، وقد كان هم هؤلاء منصرفاً إلى البحث عن الحب من حيث ماهيته، وأسبابه ودواعيه، وعلاماته وآثاره ونتائجه، فأدلى كل بدلوه، وما من شك في أن اهتمامهم به و نظرتهم إليه وأقوالهم فيه قد تأثرت بتخصصاتهم وبثقافتهم، وبعضهم كانت له تجاربه الخاصة في الحب فكان حديثه عنه حديث من ذاق الحب ولقي فيه ما يلقاه كل محب، وفي تراثنا العربي مؤلفات عديدة عُني أصحابها بالحب لعل أقدمهم محمد بن داود الأصفهاني المتوفى 296 أو 297هـ صاحب كتاب (الزَّهرة) وكذلك أبو محمد علي بن حزم الأندلسي المتوفى سنة 456هـ صاحب كتاب (طوق الحمامة)، وكذلك أبو المعالي عبد العزيز بن عبد الملك المتوفى سنة494هـ صاحب كتاب (مصارع العشاق)، وكذلك أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية المتوفى سنة751هـ صاحب كتاب (روضة المحبين) وكذلك شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة المتوفى سنة776هـ صاحب كتاب (ديوان الصبابة)... الخ هذا فضلاً عما نجده من حديث عن الحب في بعض كتب الأدب وأماليه، وتجدر الإشارة هنا إلى ذلك الاحتفاء الكبير الذي حظي به الحب في مؤلفات الصوفيين، وما له من أهمية كبيرة في حياتهم الروحية، وإن كانوا يقصدون به الحب الإلهي الذي يسم الصلة بين العبد والمعبود إلا أنهم قد تحدثوا عنه حديثاً لا يختلف عن حديث غيرهم من المحبين في الحب الذي يربط بين الرجل والمرأة، وبخاصة في أشعارهم التي يكون الرمز الغزلي حاضراً فيها، ولعل أبا حامد الغزالي المتوفى سنة 505هـ أبرز من تحدث عن الحب من الصوفيين في كتابه (إحياء علوم الدين). غير أن الشعراء كانوا هم لسان الحب الكاشف عن خفاياه وأسراره، والمعبرون عن أشواق المحبين وآمالهم، وعما يكابدونه من آلام الهجر والفراق، فاستضاؤوا بنور الحب حينا، واكتووا بنيرانه أحيانا. أحبوا وعشقوا وتعلقت قلوبهم بمن يحبون، فلا يذكر اسم أحدهم إلا وذكر معه اسم حبيبته التي وقف عليها حياته، وأخلص لها شعره كما هو مشهور عن الشعراء العذريين. وكل من ألف في الحب إنما كان يتزوَّد أدلته، ويستشهد على آرائه، ويؤكد أقواله بما اغترفه الشعراء من عيون الحب ومعين العشق. وهذا ما يجعل البحث عن ظاهرة الحب في شعر أحد الشعراء الذين قصروا شعرهم على التعبير عنه أمراً مشروعاً لنتعرَّف رؤيته للحب، ونظرته إليه.

وهو ما يهدف إليه الباحث في بحثه هذا، فهو يتغيا استجلاء ظاهرة الحب في شعر أحد شعراء الغزل العذري في العصر العباسي ألا وهو الشاعر خالد الكاتب[1] المتوفى262هـ علماً بأن البحث عن نظرة الشاعر إلى الحب، ورأيه فيه سيختلف، لا محالة، عن البحث لدى من ألفوا في هذا الموضوع نثراً ممن تقدم ذكرهم، وذلك راجع إلى أن مجال القول في النثر يختلف عنه في الشعر؛ إذ يتسع في الأول، ويضيق في الثاني؛ لأن «الشعر محصور بالوزن محصور بالقافية فالكلام يضيق على صاحبه، والنثر مطلق غير محصور فهو يتسع لقائله»[2] هذا فضلاً عمَّا قد يرد من اعتراض على تطلُّب إفادة الآراء من الشعر، إذ يعد من باب البحث عن الشيء في غير موضعه؛ لأن الشعر–كما يقول ابن سينا– «إنما المُراد فيه التخييل لا إفادة الآراء»[3]؛ إذ الغاية منه الإمتاع وليس الإقناع «وإنما الشعر ما أطرب و هزَّ النفوس وحرك الطباع فهذا هو باب الشعر الذي وضع له، وبني عليه لا ما سواه»[4]. وهو اعتراض له وجاهته؛ غير أن ما يشفع للباحث هو أن الحب

موضوع شعري في المقام الأول؛ لأنه نبت القلب، وزرع الفؤاد لا يكون وجوده إلا في تلك الأعماق، والشعراء هم الأقدر على الوصول إليها، والكشف عما تحتويه، ولعل في هذا ما يفسر إخفاق الفكر في القبض على جمرة الحب وإخضاعها لتأملاته، فلم يستطع الوصول إلى معرفة كنه الحب أو تحديد ماهيته.

والحب تجربة إنسانية عامة لكنها لا تخلو من ملامح ذاتية تتسم بالخصوصية من محب إلى آخر، ولذا فإن الحديث عن الحب في شعر الشاعر سيكون مطبوعاً بطابع الخصوصية في أغلبه غير أن هذا الأمر لا يغض من قيمة البحث عن ظاهرة الحب كما تتجلى في الشعر؛ لأن الشاعر المحب إنسان، وإن يكن الحب الذي ينطوي عليه قلبه شأناً خاصاً فإن الصفة الإنسانية أمر مشترك؛ ومن هنا يمكن القول إن «التشابه في ألوان الحياة والتجانس في مظاهرها وأحوالها يجعل من عواطف الشخص مرآة ونموذجاً لعواطف غيره. ..، وإن قدرة الأديب على التصوير تزيد هذا النوع من العواطف تأثيراً وقوة، وتجعل ما نقرؤه له بما يضمنه خلجات نفسه شديد الاتصال بنفوسنا، كأنه يعبر عن عواطفنا وانفعالاتنا»[5] فالشاعر الذي عاش الحب واقعاً وكابد في سبيله، ثم عبَّر عن ذلك، لا شك أن في شعره كشفاً لجوانب مهمة من ظاهرة الحب تكون جديرة بأن تأخذ مكانها الذي تستحقه بين الآراء والأقوال التي قيلت عن الحب واهتمت به «وقد استحق بذلك أن يكون أول مؤلف عن الحب إذا أريد بالتأليف مجرد التعبير التلقائي»[6] وحين يوصف هذا التعبير بالتلقائي فليس المراد أنه لا شأن له ولا أهمية، بل هو ذو دلالة مهمة؛ لأن الشعراء هم لسان الحب الناطق.

وحديث الشاعر المحب عن الحب ورأيه فيه، لن يكون حديثاً مباشراً؛ لأنه إنما يعبر عنه تعبيراً شعرياً يبث من خلاله مكنون قلبه، ويفضي بأشجان نفسه ولواعج فؤاده، ويكون ذلك وفقاً لما تمليه عليه تجربته الشعورية من جهة، ولما تمليه عليه طبيعة الشعر الإبداعية وسماته النوعية من جهة أخرى «فالشعر إدراك فني مجسد باللغة –وهذه صفته النوعية– للعالم وأشيائه وناسه وأحداثه وعلاقاته»[7]؛ ولذا فإن رؤيته في الحب ووجهة نظره فيه، ستكون منثورةً في أثناء شعره، وفيه يكون تتبعها، ومنه يلملم نثارها، ثم يؤلف بين أطرافها وتجمع أجزاؤها في ضميمة واحدة تشكل رأياً مكتملاً تبرز من خلاله صورة الحب لديه بما لها من خصوصية، فتضاف إلى صور الحب لدى غيره من الشعراء المحبين، لنحصل من وراء ذلك على صورة كلية للحب صادرة عن القلوب المحبة المولهة.

منهج البحث:

اتبع الباحث طريقة الاستقراء حيث تتبع الأشعار في ديوان الشاعر كله ثم انتخب منها الشواهد الممثلة الوافية بالغرض، ثم أردف ذلك بعملية تصنيف للشواهد الشعرية، ثم قام بتحليل هذه الشواهد في سياقاتها بغية الوصول إلى تفسير ظاهرة الحب كما تتجلى في شعر الشاعر.

وفي ضوء ما تقدم فقد قسم الباحث بحثه على ثلاثة محاور تسبقها مقدمة، وقد خصص المحورين الأول والثاني لعرض أشعار الحب بصوره المختلفة، فكان المحور الأول من نصيب الأشعار التي صورت جناية عين المحب على قلبه، في حين خُصص المحور الثاني للأشعار التي صورت جناية عين المحبوب على مُحبِّه، ثم وُزِّع هذان المحوران على عدد من الفقرات تحمل كل واحدة منها عنواناً مستقلاً؛ غير أن ما يجب التنبيه عليه أن عناوين الفقرات قد توحي بأن شعر الشاعر كان على هذا النحو من التفاصل والتمايز

من حيث المعاني التي يعبر عنها، والحقيقة غير ذلك فشعر الشاعر متشابك شديد التواشج والتداخل، وقد أدى ذلك إلى شيوع التكرار فيه من حيث الألفاظ والمعاني والأساليب، وبسبب من ذلك فقد كان صنيع الباحث عند تقسيمه مادة البحث على النحو المذكور محاولةً لفض ذاك الاشتباك وحلاً لهذا التداخل رغبةً في الإمساك بأطراف الموضوع ليتسنى له ترتيبها –قدر المستطاع– بصورة تذلل سبيل البحث، وتيسر تناوله، ثم جُعل المحور الثالث للدرس والتحليل ومحاولة تفسير ظاهرة الحب في شعر خالد الكاتب.

المحور الأول– جناية عين المحب:

الحب ظاهرة إنسانية لها مظاهر عدة غير أن ما يعنينا هنا إنما هو ذلك الحب الذي يربط بين قلبي الرجل والمرأة ويعقد بينهما علاقة من الشعور العاطفي الوجداني ممثلة في الميل الشديد الذي يجذب أحدهما إلى الآخر، فيشعران أن مصيرهما في هذه الحياة أصبح مصيراً واحداً، وأن لا غنى لأحدهما عن صاحبه، وأن افتراقهما موت محقق، هذا في حال كان الحب مشتركاً بين طرفي هذه العلاقة، أما إذا كان من طرف واحد فإنه سيشقى به وحده، و من المؤكد أن للحب أسبابه ودواعيه، هذه الأسباب والدواعي منها ما يتصل بالمحب ومنها ما يتصل بالمحبوب؛ ونعني بالمحب هنا الرجل تحديداً؛ لأنه الطرف الذي يملك زمام المبادرة بخلاف المرأة فهي، إن كانت طرفاً محباً، لا تتمتع بما يتمتع به الرجل من القدرة والجرأة في التعبير عن هذه العلاقة، لذلك شاء قدرها أن تكون محبوبةً لا مُحبة مطلوبة لا طالبة، وهذا لا يعني أنها لا تملك الوسيلة فهي، وإن كانت لا تستطيع أن تبادر الرجل فتكاشفه بعواطفها نحوه «قادرة على أن تبلغه هذه الحاجة بما لديها من وسائل توحي بها إليه، أو تحثه على المبادأة التي جُعلت له وحُرمت منها، ووسائلها إما النظرة المعبرة الموحية تودعها خلجات نفسها، وإما ما وُهبت من أدلة الحسن ومعالم الفتنة »[8]، أما المحبوب فنقصد به المرأة حصراً ، وأسباب الحب ودواعيه مشتركة بين طرفي هذه العلاقة، والداعي – كما– يقول ابن القيم: «قد يراد به الشعور الذي تتبعه الإرادة والميل، فذلك قائم بالمحب، وقد يراد به السبب الذي لأجله وجدت المحبة وتعلقت به، وذلك قائمٌ بالمحبوب ونحن نريد بالداعي مجموع الأمرين»[9] ولعل الداعي عند ابن القيم، حين يتعلق بالمحب، هو الباعث أو المثير في الاصطلاح النفسي «ويقصد بالباعث شيئاً خارج الذات يستثير الدافع ويستحثه، فتندفع الشخصية في سلوك يستهدف الحصول على هذا الشيء، وبالتالي يصبح هذا الشيء باعثاً للفرد على قيامه بنشاط ما أو سلوك معين»[10] وهذا الباعث الخارجي هو ما يتمتع به المحبوب من الصفات الجميلة سواء ما اتصل منها بصورته الظاهرة أم بأخلاقه وسماته المعنوية الباطنة، وما تملكه من قدرة على التأثير في نفس المحب «ودواعي الحب من المحبوب جماله إما الظاهر أو الباطن، أو هما معاً فمتى كان جميل الأخلاق والشيم والأوصاف كان الداعي منه أقوى»[11] ومن هاهنا يشترك كل من المحب والمحبوب في أسباب الحب ودواعيه؛ فالأول يملك الاستعداد الشعوري والإرادة والميل، والثاني يملك صفات الجمال ومقومات الحسن الداعية إلى محبته. هذه إذن دواعي الحب وأسبابه وإذا ما نظرنا في شعر خالد الكاتب لنتعرف رؤيته للحب من منظور هذه الدواعي والأسباب فإننا نجده لا يشذ عنها فهي عنده مشتركة بين المحب والمحبوب، أما من جهة المحب؛ فإن عينه هي السبب الداعي إلى الحب والدافع إليه ولا غرو حينذاك

أن نجد الشاعر يحمِّل عينه وزر ما يعانيه من ويلات الحب وعذاباته؛ لأنها هي التي أوقعته في شَرَكِ الحب وألقته في أسره؛ وبذلك تكون عين المحب هي التي جنت عليه، وأما من جهة المحبوب فإن عين المحبوب تفعل بلحظها في قلب المحب ما تشاء، وهي بذلك تنضم إلى عين المحب في الجنايةً عليه. فكيف كان ذلك؟ وللإجابة على هذا السؤال سنمضي في دراسة الشعر الخاص بهذين المحورين، بادئين بأولهما وهو الذي جُعل لتبيان جناية عين المحب، على النحو الآتي:

1- العين تلحظ والقلب يحب:

يرجع الشاعر أسباب الحب ودواعيه إلى العين فهي أهم الأسباب وأخطرها؛ لأنها تسرح بصاحبها في رياض الحسن ومواطن الجمال، وتغري قلبه بكل ما هو حسن جميل، وأكثر مظاهر الحسن والجمال « جاذبيةً وأقواها سيطرةً على القلب والعقل والروح، وأبعثها على السرور للعين، وعلى إثارة التساؤل والدهشة هو مشهد المرأة الحسناء»[12] وعندما يستجيب القلب لداعي العين فإنها تورثه شغفاً بذلك الحسن وتعلقاً به، فتتحول حياة المحب من السكينة وخلو البال إلى الانشغال بالمحبوب وارتباط مصيره به، يرى فيه كل أسباب الحياة السعيدة الهنيئة، تحلو الحياة بقربه، و تصبح في بعده جحيماً لا يطاق، وكل ذلك كان نتيجة لحظ العين وجنايتها على صاحبها، وإليه يشير بقوله[13]:

ولـــم أزل فيمـــا مضـــى آمنـــاً مـــن ذلـــة الأســـقام والبلـــوى
حتـــى جنـــى طرفـــي علـــى مهجتـــي فـــأظهر الغيـــرة والســـلوى

لقد تبدلت حياة الشاعر المحب بالأمن والسلامة ألماً وسقما، أسرعا إليه عقب لحظة أرسلها طرفه ولم يحسب لها حسابا؛ لأن اللحظ نظر ليس فيه إطالة إلى الشيء المنظور فهو «النظر بمؤخر العين من أي الجانبين يميناً أو شمالاً، أو هو النظر بشق العين الذي يلي الصدغ»[14] ولعل الناظر بهذه الطريقة يكون صاحب حذر وحيطة يختلس النظر اختلاسا، وهو بذلك يظن نفسه آمناً من عواقبه، ولم يكن في حسبانه ما تخبئه الأقدار، وهكذا تذهب نفسه ضحية تلك اللحظة الجانية كما يقول[15]:

يـا رب مـاذا جنـت عينـي علـى بـدني مـن السـقام فليـت العـين لـم تكـنِ
لـم تـذهب الـنفس إلا عنـد لحظتهـا و حسـبها أن تـرى المملـوك يملكنـي

فسقام الجسد وذهاب النفس وتملُّك المحبوب أمر مُحِبّه كل هذا بسبب لحظ عينه؛ وما ذلك إلا لأن العين هي الباب الذي ينفذ منه الحب إلى قلب المحب وهذا أمر مجمع عليه، فالنظرة أقوى دواعي الحب وأشدها تأثيرا حين تكون باباً مشرعا يعبره الحب ليستوطن في شغاف القلب، والعين في أصل وضعها دليل هداية، وسبيل نجاة في طرقات الحياة، ومصدر أمن وسلامة؛ لكنها فيما يتصل بالحب تصبح على غير ما عُهدت، إذ تقود صاحبها إلى حتفه، ولا تتورع عن الإضرار بقلبه، يدل على ذلك قوله[16]:

أتُـــرى نـــاظري يضـــر بقلبـــي مـــا احتيـــالي إن كـــان منـــي حتفـــي؟!

وقوله[17]:

فمـــــــا أرى إلا فتـــــــى ميتـــــــاً عينـــــاه آفـــــات علـــــى قلبـــــه

وليس في مقدور المحب أن ينجو مما به، وليس له مسعف أو معين غير دموعٍ يسفكها، أو شكوى يبثها، ولم يكن خالد الكاتب في هذا الأمر بدعا بين المحبين فلقد بكى كما بكوا، وشكا إلى الله ما يلقاه من ويلات السهر وحرقة الأشواق كما شكوا، ومَن غيرُ الله سبحانه يُلجأ إليه في حال كهذه، يقول [18] :

أمـــــا الجفـــــون فإنهـــــا مطروفـــــةٌ مـــــن طـــــول مـــــا وكلتهـــــا بتســـــهُّدِ
والقلـــــب مـــــن زفراتـــــه متوقـــــدٌ بغليـــــل شـــــوق فـــــي الحشـــــا متوقـــــدِ
يـــــا رب كـــــم أشـــــكو ومـــــا لـــــي راحـــــةٌ مـــــاذا جنـــــى طرفـــــي ومـــــا كســـــبت يـــــدي

هكذا هو حال المحب ألم ومعاناة وسقم وسهر ومكابدة، ولكنه يستسهل كل ذلك في سبيل من يحب، فهو – وإن كان يكابد ويعاني– لا يتمنى لمحبوبه أن يعاني شيئاً مما يعانيه بل يتمنى له السلامة والسعادة، وكأنما خلق ليضحي ويشقى فداءً لمن يحب إذ يقول[19]:

ســـــــعدت جفونـــــــك بـــــــالكرى ورقـــــــدت أنعـــــــم مـــــــن رقـــــــد
وأنـــــــا المســـــــهد فـــــــي هـــــــوىً بـــــــاقٍ علـــــــى طـــــــول الأمـــــــد
لا نـــــــال جســـــــمك مـــــــا بـــــــرا نـــــــي مـــــــن ســـــــقام أو كمـــــــد

كانت تلك صورة لجناية العين على صاحبها وهي ترسل لحظاتها في مظاهر الحسن والجمال فتورث قلبه حب حبيب لا يرق ولا يلين.

2– العين تدعو والقلب يستجيب:

تقدم أن العين هي الجانية على القلب؛ فهي التي تطلعه على مباهج الجمال وفتنته، وتوقفه على أسباب الحب، و تغريه به، وتحضه عليه، فهل كان القلب مجرد مجني عليه أم كانت له يدٌ ومشاركة في هذا الحب؟ الحقيقة أن القلب لم يكن مجرد مجني عليه؛ لأن الناظر في طبيعة الحب لا يستطيع أن يبرئ ساحة القلب منه، وهو ما يميل إليه الشاعر في بعض الأحيان؛ إذ يُقر بأن لقلبه مشاركةً فيما حدث له؛ لأنه لم يكن حذراً بل سلَّم للعين قياده، ومضى يتبعها مهما أوردته من الموارد، ولو كان في ذلك حتفه كما في قوله[20]:

لـــــم أدرِ أن الحتـــــف فـــــي نظـــــري وأن قلبـــــي للعينـــــين متبـــــعُ

فالشاعر المحب لم يكن يعلم ما تقوده إليه عينه، ولم يكن يعلم أن قلبه متبع نظراتها، وأنه حيثما وجهه لحظُها توجه، فهي تدعو القلب وهو سرعان ما يستجيب لها عن طواعية واستسلام، لاعن إكراه وإلزام، وقد أطلعته العين على ما لا يوصف من الحسن ولا يقارن من الجمال، كما يقول[21]:

يـا مـن تـدق عـن الصـفات محاسـنُه وتجلُّـــه الأبصـــارُ حـــين تعاينُـــه
دان الجمـــال لـــه فـــأيقن أنـــه لا شـــيء أصـــبح مثلـــه فيقارنُـــه
صـل مـن دعتـه إليـك لحظـة طرفـه وأرتـــك أنـــك لا محالـــة فاتنُـــه
فأجـــاب دعواهـــا وأقبـــل طائعـــاً قلـبٌ تحـرك مـن هـوىً لـك سـاكنُه

فالطرف يدعو القلب والقلب يستجيب؛ ولا يملك غير ذلك أمام جمال فائق فاتن، دان له الجمال نفسه، فكيف لا تدين له القلوب، وإذا أحب القلب فإنه لا ينفرد بمعاناته وآلامه، بل يشاركه البدن فيلقَى من وطأة هذا الحب ما لا يمكن تجنبه؛ إذ يصبح أسيراً مثقلاً بالآلام والأسقام، كما يقول[22]:

بـــدنٌ لـــيس ينجلـــي الســـقم عنـــه مـــا جنـــى بـــالهوى عليـــك فـــؤادك
كيـف تسـلو أم كيـف يسـعدك الصبـ بـر وفـي كـف مـن تهـوى قيـادك ؟!

وكما جنت العين على القلب هاهو القلب (الفؤاد) يجنى على البدن ويتركه أسير سقم لا يُرجى برؤه منه، ولكن مع ميل الشاعر، أحيانا، إلى الاعتراف بأن للقلب مشاركة في الحب تتمثل في استجابته لداعي العين، فإنه، غالبا، ما يميل إلى تبرئة ساحته، بل يصرح بذلك دون مواربة قائلا[23]:

ما لي أعاتب قلباً في صبابته والعين باللحظ للأهواء تبذله

ولفظ البذل يشي بالعطاء السخي الذي لا تردد معه، وإنما يرافقه سعادة الباذل واستشعاره استحقاق المبذول له هذا البذل، وكأنما هو أداء لفرض الطاعة والولاء الذي تدين به عين المحب لعين المحبوب.

3- القلب يصون والعين تخون:

العلاقة بين عين الإنسان وقلبه علاقة وثيقة، فالعين نافذة القلب التي يطَّلع من خلالها على العالم الخارجي، من جهة، وهي الباب الذي تنفذ من خلاله أشياء العالم الخارجي، التي للقلب بها تعلق شديد، إلى سويدائه من جهة أخرى، وهذا يجعلها مسؤولة مسؤولية كاملة عمَّا يلحق بالقلب من خير أو شر، فعليها تقع رعاية القلب وصيانته؛ لأنها مؤتمنة عليه، وإذا كان الحب مما يضر بالقلب فالأولى أن تمنعه العين منه، وأن تصرف عنه كل أسبابه ودواعيه، لكنها لم تفعل ما ينتظر منها في الحفاظ عليه بل جنت عليه ورمته في لجة الحب غير آسفة، كما في قوله [24]:

رقـــدت عينـــاك يـــا مـــن طرفـــه لـــم يـــدع عمـــداً لطرفـــي وســـنا
قـــال لـــي الناصـــح أضـــناك الهـــوى قلـــت: مـــا زال علينـــا أو لنـــا
مـــا جنـــت عينـــي ومـــاذا صـــنعت كيـــف يـــؤتى المـــرء ممـــا أمنـــا ؟

إن للعين متعة في النظر إلى الجمال، وسروراً لا يخفى في مطالعة ألوان الحسن، غير أنه في تلك المتعة وذلك السرور يكمن شقاء القلب وأحزانه، ومن هنا تأتي خيانة العين أمانتها؛ ففي سبيل متعتها وسرورها تضحي بالقلب وتلقي به في قبضة عين المحبوب غير ملتفتة إلى ما يجب عليها من حفظه

ورعايته، يؤكد ذلك في قوله[25]:

يـــا لـــك مقلـــةٌ وثقـــت بهـــا فأســـلمتني لمَّـــا رأت حســـنا

وكذلك قوله[26]:

ولـــم أدرِ مـــا جهـــد الهـــوى وبـــلاؤه وشـــدته حتـــى وجـــدتك فـــي قلبـــي
أطاعـــك طرفـــي فـــي فـــؤادي فحـــازه لطرفـــك حتـــى صـــار فـــي قبضـــة الحـــب

فالسيد المطاع الذي يستحق البذل ولا يُعصى له أمر إنما هو طَرْفُ المحبوب، والعبد المطيع إنما هو طَرْفُ المُحب، أما القلب فقد غدا ضحية هذه المُطارفَة بين عين المحب وعين المحبوب التي انتهت بخيانة عين المحب أمانتها حين أسلمت قلبه مكبلاً بأغلال الحب إلى عين المحبوب، وحين تتعاظم جناية العين، ويكبر ذنبها في حق القلب، فإن صاحبه يدعو عليها قائلاً[27]:

يـــا عـــين كـــم أدعـــو عليـــ ك ولا يـــريح الله منـــك
مـــا كـــان أفقرنـــي إلـــى قلبـــي وأغنـــى القلـــب عنـــك
كـــم خنتنـــي وخـــذلت قلـــ بـــاً لـــم يخنـــك ولـــم أخنـــك

فلقد كان الشاعر في غنى عن هذا الحب الذي ذهب بقلبه وهو في مسيس الحاجة إليه، وبالمثل، فقد كان القلب في غنى عن العين وما قادته إليه من آلام الحب ومعاناته، لكن العين خانت القلب وخانت صاحبه في آنٍ معا، وكان جديراً بها أن تقابل الوفاء بالوفاء، وأن لا تخون من لا يستحق الخيانة.

4- القلب يكتم والعين تفشي:

أطلقت العين لحظها في مظاهر الحسن الفاتن والجمال الآسر، فأحب القلب مستجيبا لداعي الحسن لما دعا، وأصبح القلب للحب مستقراً ومكانا، صائناً أمر الحب كاتماً سرَّه، لكن أنَّى لسر الحب أن يظل مكتوماً مصونا، ودمع العين مذيع ما يخفي القلب، بائح بما تجن الجوانح، يقول ابن حزم: « و يأبى السر الدفين، ونار الكلف المتأججة في الضلوع إلا ظهوراً في الحركات والعين »[28] وإلى هذا يشير الشاعر قائلاً[29]:

لـــم أزل أكـــتم الـــذي بـــي حتـــى كـــان دمعـــي علـــى هـــواي دلـــيلا

هكذا يصبح الدمع دليلاً على الهوى مخبراً بما تنطوي عليه الضلوع، ولقد يهون الأمر لو لم يكن للعذول فيه منفذ يطَّلع من خلاله على سر المحب، وهنا تشتد قسوة البوح بسر الهوى، وفيه يقول [30]:

دل العـــذول علـــى مـــا بـــي وأظهـــره دمـــعٌ إذا أســـلمته مقلتـــي وَكَفَـــا

فالعذول عدوٌ لدود للمحبين لا سعادة له إلا في شقائهم، ولا فرحة له إلا في أحزانهم، ولا يهدأ له بال إلا حين يبلبل أحوالهم، ولا يقف الأمر عند العذول حين تفشي الدموع كوامن صدور المحبين، بل يجاوزه إلى المحبوب نفسه فهو ما إن يقرأ ما تخطُّه دموع المحب من آثار التعلق بالمحبوب والشغف به حتى يأخذه

الغرور فيتيه دلالاً، ويتمادى في الهجر بعد أن علم ما له من عِظم المكانة وعلو المنزلة، وإلى ذلك يشير بقوله[31] :

دلَّـــت علـــى أنـــي بـــه مُـــدنفُ عـــين مـــن الوجـــد بـــه تـــذرفُ
وإنمـــــا يهجرنـــــي أنـــــه يعـــرف مـــن قلبـــي مـــا يعـــرفُ

ويظاهر الدمع ويعضده في سبيل إفشاء سر المحب، والبوح بما يكتمه ما يصيب جسده من ألم السقام والضنى وتصاعد الزفرات، وفي حين يعلن المحب تصبُّره محتسباً، وكتمان ما يلقاه رجاء ثواب ربه، يتأبَّى عليه سقامه وتستعصي عبراته كما في قوله[32]:

وكتمـــت مـــا ألقـــاه محتســـباً مـــتحملاً لا أظهـــر اللهفـــا
فـــأبى الســـقام وعبـــرةٌ وكفـــت إلا بمـــا أســـررته كشـــفا

وقوله[33]:

نمَّـــت بســـر ضـــميره عبراتُـــه وتكلمـــت بســـقامه زفراتُـــه

ومهما يكن فالعين هي الملوم الأول في هذا السياق؛ لأنها الكاشف الأقوى لما خفي من حال المحب، والناطق البليغ بمكنون صدره، وليس من عجب أن نجد الشاعر يلح في الدعاء عليها؛ فهي الجاني الذي يحمل المسؤولية كاملة فلقد أطلقت ألحاظها في مظاهر الجمال وفتنته، ثم أغرت به القلب فلما تمكن منه الحب واستقر في سويدائه، وحاول كتمانه صابراً محتسباً، أرسلت فيض دموعها مفشياً سر الحب الكامن؛ وهي بذلك تكون قد خانت صاحبها مرتين: الأولى حين أغرته بالحب، و الثانية حين أفشت سر هذا الحب فهي وحدها التي تملك القدرة على فض ختام ذلك السر الدفين في أعماق النفس؛ لأنها « باب النفس الشارع وهي المنقبة عن سرائرها، والمعبرة لضمائرها، والمعربة عن بواطنها »[34] وإليها يتوجه داعياً بقوله[35]:

يـــا بصـــري ليتـــك مـــا كنتـــا أســـررتُ مـــا ألقـــى وأعلنتـــا
نطقـــت بالـــدمع بمـــا فـــي الحشـــا ويحـــك مـــا ضـــرك لـــو صُـــنتا
ليتـــك إذ بـــان فـــؤادي بمـــا جنـــت عليـــه لحظـــةٌ بنتـــا
يـــا بصـــري حســـبك مـــا خُنتـــا أنـــت الـــذي أهلكتنـــي أنتـــا

5- العين تدمع والقلب يعاني:

تبين أن العين هي المسؤول الأول عن الحب وأسبابه ونتائجه، فلقد جنت على القلب جناية كبيرة، وخانت الأمانة، لكنها لم تكن في مأمن مما صنعت، فالقول يصدق أن أول ما جنت كانت جنايتها على نفسها، فحين ألقت بالقلب في قبضة الحب واستولى عليه، وتمكن منه، ألقت بنفسها –حينذاك – في قبضة

السهر فحالفتها الدموع التي لا انقطاع لها، يبين ذلك قوله[36]:

لـــم تـــدرِ عينـــي مـــا جنـــى لحظهـــا حتـــى جـــرى مـــن دمعهـــا مـــا جـــرى

وقوله[37]:

أيـــا مقلـــة تبكـــي عليهـــا بـــدمعها بهـــا نـــدب مـــن عبـــرةٍ وســـهادِ

كأنـــك عاديـــت الفـــؤاد وإنمـــا أصـــابك هـــذا مـــذ أصـــبت فـــؤادي

إن المعاناة قد عمت وشملت كلاً من الطَّرْفِ والقلب، فهما مشتركان في الهم والحزن والآلام، وكأنما كل واحد منهما يدفع ثمن جنايته وجريرته، لكن هذا لا يعني أنهما متساويان في الجناية؛ لأن أساس الداء إنما جاء من قِبَل العين، وإلى ذلك يشير بقوله [38]:

ذهـــاب النفـــوس وجهـــد القلـــوب ودمـــع العيـــون بلحـــظ العيـــون

ولذا كان أنعم الناس حياةً، وأهدؤهم بالاً هو ذلك الذي استراح قلبه وجسده مما تجره العيون على أصحابها كما يقول [39]:

طـــوبى لمـــن عـــاش وأجـــزاؤه مـــن مقلتيـــه مســـتريحات

وبهذا يكون قد تبين المراد من المحور الأول الخاص بجناية عين المحب، وفيما يأتي سيتوجه الحديث إلى المحور الخاص بجناية عين المحبوب.

المحور الثاني–جناية عين المحبوب:

الحب علاقة تصل بين طرفين وله أسبابه الداعية إليه، وقد تقدم الحديث عنها، وكان أبرز أسبابه وأظهرها، فيما يراه الشاعر، هو عين المحب؛ لأنها التي تدعو القلب بلحظاتها وتغريه بالحب فيستجيب لها، وهي أحد طرفي هذه العلاقة، وثمة طرف آخر لا يقل أهمية عن سابقه ألا وهو عين المحبوب. فإذا كان حضور المحبوب في المحور الأول يقف عند ما يتمتع به من الجمال والحسن والفتنة، فإننا في هذا السياق نجده قد جاوز ذلك إلى ما هو أهم وأخطر وأشد تأثيراً في قلب المحب؛ إنها عين المحبوب التي لها من القدرة والقوة ما ليس لسواها، فهي قادرة قوية فتَّاكة، لها على القلب سلطان لا يقاوم، وسطوة لا ترد، ومن هنا تأتي جناية عين المحبوب على قلب مُحبه وسنمضي في تبيان ذلك على النحو الآتي:

1– قوة اللحظ في عينيه:

إن ما يتمتع به المحبوب من جمال آسر، وحسن باهر، وطرف ساحر، وتورُّد خدّ، واعتدال قدٍّ، ونبل

أخلاق وكرم صفات، كل ذلك مما يجذب الأنظار إليه، ويجعل القلوب تهفو إليه، غير أن العين هي الأكثر تأثيراً، والأشد قوةً، يذعن لها القلب ويذل ويخضع؛ لأنه لا يملك غير ذلك، كما في قوله[40]:

ما وقعت عيني على منظرٍ كوجهه حسناً ولا قدِّهِ
من ينسب الخمر إلى طرفه وينتمي الورد إلى خدِّهِ
قدرة عينيه على مهجتي كقدرة المولى على عبدِهِ

هذه هي سطوة عين المحبوب وسلطانها على قلب محبِّه، قدرة قاهرة لا تقاوم، تفعل فيه فعلها، وهو مستسلم استسلام العبد المملوك للمالك القادر «واعلم –أعزك الله– أن للحب حُكماً على النفوس ماضيا، وسلطاناً قاضيا، وأمراً لا يُخالف، وحداً لا يُعصى، ومُلكاً لا يُتعدَّى، وطاعة لا تُصرف، ونفاذاً لا يُرد»[41]، ويلاحظ أن الشاعر حين يصف جمال المحبوب من وجه حسين، وقدٍ معتدل، وخدٍ مورَّد، يخلص من ذلك إلى العين ويرد أسباب الحب والغرام إليها لا إلى سواها من أوصاف الجمال؛ فالعين وحدها، كما يرى الشاعر، هي الفاعل المؤثر القادر على قهر المحب وتملُّكه، ومما يؤكد هذه الخاصية في نظرته إلى الحب، فضلاً على ما ذُكر، قوله[42]:

قد تطلع الشمس كما تطلع ونوره من نورها أنصعُ
في وجهه أضعاف أضوائها فهو، إذا ما اجتمعا، جُمَّعُ
لا شيء في الناس إذا حصلوا من وجهه أبهى ولا أبدعُ
فإن يكن ملَّكه طرفُهُ بلحظِهِ قلبي فما أصنعُ

فالوجه ساطع النور بهي الضياء يفوق نور الشمس؛ لكن الذي تملك قلب المحب من بين تلك الصفات إنما هو العين بألحاظها، ومعلوم أن العبد المملوك أسير مالكه، في يديه سعادته وشقاؤه، ولا يقدر على شيء إلا بإذنه. ومما تجدر الإشارة إليه أن ثمة أواصر متينة تربط الحب بالعبودية؛ وذلك حين يكون سر العبودية نابعاً من القلب الذي هو مستقر المحبة وموطنها، ومن هنا تصبح العبودية مرتبة عالية من مراتب الحب كما يقول ابن القيم: «التعبُّد وهو فوق التتيم؛ فإن العبد هو الذي قد ملك المحبوب رِقَّه، فلم يبقَ له شيءٌ من نفسه البته بل كله عبد لمحبوبه ظاهراً وباطنا»[43] وهذا ينم على أن شأن الحب مع أهله شأنٌ عظيم إذ يعقد بينهم من الصلات القلبية والتعلق النفسي ما يفوق صلات القرابة والنسب، يغدو فيها المحب عبداً مملوكاً للمحبوب وفيها يقول[44]:

تعبَّـــــدني أحـــــور النـــــاظر فـــويلاه مـــن طرفـــه الســـاحر
وأورثنـــــي فتـــرةً فـــي العظـــا م مـــن طرفـــه الفـــاتن الفـــاتر

فطرف المحبوب بما له من قوة ساحرة تمكنِّه من تملُّك القلوب وأسرها، يدعو قلب المحب فلا يملك إلا أن يلبيه طائعاً بل ينقاد إليه ذليلاً «والحب مبني على الذل ولا يأنف العزيز الذي لا يذل لشيء من ذله لمحبوبه، ولا يعده نقصاً ولا عيبا»[45] وإلى هذا يشير قائلاً[46]:

مـــن دعـــاني بمقلتيـــه فأقبلـــ ت ذلـــيلاً إليـــه ســـهل القيـــادِ

2- سطوة السحر في عينيه:

إن فعل عين المحبوب وشدة تأثيرها في المحب شيءٌ يثير فيه الدهشة؛ وذلك لما يحدثه من أثر في قلبه يغيره بصورة سريعة من حال إلى حال، وعندما لا يجد المحب تفسيراً لذلك التأثير العجيب المثير للحيرة والدهشة فإنه لا يتردد في وصفه بالسحر، وهو أمر شائع لدى المحبين حين يلقون على عتبات السحر أثقال تلك الدهشة والحيرة المقلقة إزاء سر الحب الغالب كما في قوله [47]:

ســحر هــاروت منــك فــي النظــرات واهتـــزاز القضـــيب فـــي الحركـــات
وضـــياء الحجـــاب فـــي ســـالفاتٍ بـــاحمرار النعـــيم مختضـــبات
هـــن أنحلننـــي ووكلـــن قلبـــي بلبـــاس الهمـــوم والزفـــرات
يـــا ســـروري وغـــايتي فـــي حيـــاتي ومنـــى الـــنفس فيـــك حـــين ممـــاتي

وزيادة في تأكيد سطوة العين وشدة وقوع ألحاظها عليه وأخذها بمجامع قلبه؛ فإنه يقرن السحر بالخمر وحينذاك لا يقف تأثير عين المحبوب وفعلها العجيب عند قلب المحب، بل يجاوزه إلى جسمه كما يقول[48]:

إذا بـــدا شـــغل الأنظـــار منظـــره فـــي كـــل ناحيـــة مـــن وجهـــه بـــدرُ
يـــدب مـــن لحظـــه فـــي جســـم لاحظـــه ما يفعل السحرُ في الأبدان والخمرُ

ومرةً أخرى يظهر لفظ التملك، وفيه إشارة إلى مدى ضعف المحب وذله وهو واقع في قبضة المحبوب وتحت تصرفه كما في قوله[49]:

فيـــا مـــن تملَّكنـــي طرفُـــه أجرنـــي مـــن طرفـــك الســـاحرِ

وكون الإنسان مملوكاً فهذا يعني أنه فقير إلى من يملكه محتاج إليه غير قادر على الاستغناء عنه، وكذلك هو حال المحب؛ فهو في فقر دائم إلى محبوبه، يرجو وصاله ويتمنى قربه ولا يقوى على هجرانه

وبُعده كما في قوله[50]:

صـــــــل فقيـــــــراً كـــــــان لـــــــولا سـحـــــــر عينيـــــــك غنيـــــــا

3-الرمي والقتل في لحظه:

الشاعر كغيره من العشاق والمحبين يجد في عيني محبوبه سهاماً ترشق وسيوفاً تقطع، وهو القتيل المضرج بدمه بين رشقات السهام وضربات السيوف، وتلك صورة مألوفة من تقاطعات الحب والحرب في «لوحات شعر الغزل عامة، وفي العذري منه على نحو خاص، يظهر في رموز حربية كثيرة منها: الرمي، والصيد، والأسر، والقتل»[51] حين يغدو المحب غرضاً للسهام التي تصدر عن قوس ألحاظ العيون، وأوتار فتور المُقَل كما في قوله[52]:

رمـــــــى قلبـــــــي بلحظتـــــــه فســـــــرت أســـــــير لحظتـــــــه

وأقصـــــــــــــــدني بســـــــــــهم را شـــــــه بفتـــــــور لحظتـــــــه

فالعين، على ما فيها من ضعف، هي التي تسفك دماء العشاق والمحبين، فتتركهم صرعى نصالها المغروزة في أفئدتهم كما يقول[53]:

و فـــيَّ مـــن الهـــوى لحظـــات طـــرفٍ رنـــا مســـتمحناً ســـلس القيـــادِ

فأثبـــت فيـــه ســـهماً جوهريـــاً يُـــروَّى نصـــله بـــدم الفـــؤادِ

والجوهر لفظ فلسفي يطلق على الشيء القائم بنفسه الحامل لغيره، ويقابله العَرَض وهو الشيء الذي لا يقوم بنفسه ويحتاج إلى غيره، ولعله يريد من وراء ذلك إثبات أن للمحبوب سهاماً خاصةً به ذات وجود أصيل في عينيه لا على سبيل الاستعارة من سواه؛ ولذلك لا تجد في شعره تشبيهاً لعين المحبوب بما اشتهر بالحسن من عيون الحيوان؛ لأنه لا شبيه له في جماله، ولهذه السهام من الشدة والقوة ما لا يُرد فلا تقع على شيء إلا أصابته، ولا ترتوي إلا بدم القلب كما يقول[54]:

لـــــم أقـــــل ذا لأننـــــي أهواكـــــا أشـــــهد الله أنـــــت أهـــــل لـــــذاكا

يـــا نقـــي الجمـــال مـــن دنـــس الشـــبه جلـــيلاً فـــي كـــل عـــينٍ تراكـــا

ومليكـــــاً حـــــاز القلـــــوب بشـــــيءٍ لـــــم يحزهـــــا بـــــه مليـــــكٌ ســـــواكا

أي شـــــيءٍ رأيتـــــه لـــــم تصـــــبه بســـــهامٍ مصـــــيبةٍ عيناكـــــا

إن في عيني المحبوب ما يجعله متفرداً في جماله يُستعار الحسن من حسنه، وينسب الورد إلى وجنته، فهو فاتر الطرف ولكنه أقدر الناس على القتل به، كما يصفه قائلاً[55]:

غصـــــن لـــــيس كالغصـــــون نضـــــيرُ كـــــل حســـــن مـــــن حســـــنه يســـــتعيرُ
مـــــن إلـــــى وجنتـــــه ينتســـــب الـــــورد ومـــــن وجهـــــه ســـــراجٌ منيـــــرُ
شـــــــهد العـــــــاذلون حـــــــين رأوه أننـــــي فـــــي الهـــــوى بـــــه معـــــذورُ
أقتـــــل النـــــاس للنفـــــوس بطـــــرفٍ صـــــائب اللحـــــظ كـــــان منـــــه الفتـــــورُ

ولعلك تلاحظ إصرار الشاعر حين يصف جمال المحبوب، من حيث قوامه، ووجهه ووجنته على تغليب أثر العين على سواها، فهو يرى أن أشد ما يلقاه منه إنما هو قادم من لحظات طرفه وما فيها من فتور قاتل. لقد جنى طرف المحبوب على مُحبِّه، وأجرى دمه ظلماً وعدواناً؛ ولذا فإنه سيلقى الله حاملاً وزر دمه الذي سفكه قاصداً متعمداً كما يقول[56]:

مُقلتـــه فـــي حـــرجٍ مـــن دمـــي تعمـــدَّت قتـــل فتـــىً مســـلمِ
لا نالهـــا المكـــروه مـــن مقلـــةٍ مريضـــةٍ داميـــة الأســـهم

4- فتور عينيه وسقمهما:

يرجع الشاعر ما ناله من عيني محبوبه إلى صفةٍ غالبةٍ عليها ألا وهي الفتور والسقم؛ أما الفتور فهو الانكسار والضعف و« طرف فاتر فيه فتورٌ وسُجوٌّ ليس بحاد النظر...، وأفتر الرجل فهو مفتر إذا ضعفت جفونه، فانكسر طرفه »[57] وهذه الصفة غير مقصورة على الرجل وإنما هي مشتركة بينه وبين المرأة، وهي في عيني المرأة صفة مستحسنة، ولذلك تجد الشعراء يشكون العيون وما في لحظها من فتور وضعف وانكسار، وهذه الأوصاف بما تحمله من دلالة ضعف النظرة وسقمها وانكسارها و عدم القدرة على فعل شيء هي نفسها مصدر القوة والقدرة، فبها تصاد القلوب وتؤسر؛ وذلك لأن « النظرة الفاترة تحفر في الفؤاد جراحات عميقة. .. تستبيح ذات المحب فتملك عليه سلطان قلبه لينقاد وقد هوى أسيرها، ذلك لما تبديه من شوق ولهفة وتضرع وتوسل، ولما تكشف عن هوى جامح في النفس يبوح بحاجات لا يستطيع اللسان حيالها بوحاً، بل ربما يقف عاجزاً »[58] وإلى ذلك يشير بقوله [59]:

حبـــــك بـــــين الحشـــــا مقـــــيم يـــــا أيهـــــا الشـــــادن الـــــرخيم
ألا وخـــــــــد عـــــــــلاه وردٌ أحســـــن فـــــي صـــــنعه النعـــــيم
لقـــــد تمكنـــــت مـــــن فـــــؤادٍ أســـــقمه طرفـــــك الســـــقيم

فلقد أصبح الفتور علامة حسن وتفوق في عيني المحبوب، به يتيه على الأنام، وفيه يكمن سر الأماني إذا وعد، وأسباب المنايا إذا توعَّد، والمحب لا يلجأ في الحالين إلا إلى محبوبه مستجيراً بحسنه من هجره، وبوعده مستعيذاً من وعيده، قائلاً [60]:

فـــي القلـــب نـــارٌ مـــن صـــدودك فأعـــذ بوعـــدك مـــن وعيـــدك
يـــا واحـــداً فـــي حســـنه مـــاذا أردت إلـــى وحيـــدك
هـــلا بـــذلت لـــه الوصـــا ل فيمـــا يؤمِّـــل مـــن مزيـــدك
بفتـــور لحـــظٍ راعـــه مـــن مقلتيـــك وحســـن جيـــدك

وكما جمع فتور عيني المحبوب بين قلب المحب وأسباب المنايا والمنى، كذلك جمع بينه وبين شدة الشوق، وطول الليل، وقلة الصبر عن حبيب مشرق الجبين، ناضر الطلعة، سقيم اللحظ، فاتر الطرف، وهذا الإلحاح العجيب على صفتي الفتور والسقم في عيني المحبوب راجع لما لهذه الصفة من تأثير شديد على قلب المحب؛ لما يوشِّيها من رقة الاستعطاف والتوسل والتضرع الذي يستدر حنان القلب ويستجيش عواطفه، فهي سبب الحب الذي استوطنه، وسبب ما ناله من الألم والسقم كما في قوله[61]:

علـــى عينـــي مـــن النـــوم الســـلامُ كـــأن مكانـــه فيهـــا حـــرامُ
أيـــا طعـــم الرقـــاد أقـــم هنيئـــاً بمقلـــة مـــن ينـــام ولا أنـــام
أيـــا مـــن لحـــظ مقلتـــه ســـقيمٌ وفيـــه للأصـــحاء الســـقام

المحور الثالث– ثنائية العين والقلب:

لعله يكون قد توضح من خلال المحورين السابقين أن الشاعر خالد الكاتب يرجع الحب من حيث أسبابه ودواعيه إلى العيون؛ فبها ومن خلالها يتحقق وجوده في القلب واستيلاؤه عليه وتملُّكه إياه، فإذا كان القلب هو موطن الحب ومحط رحاله، فإن العين هي أقوى السبل الموصلة إليه، وأسرعها وأشدها تأثيراً، ولقد قصر الشاعر سبيل وصول الحب، غالباً، على هذه الحاسة دون غيرها؛ وإن الناظر في ديوانه لا يكاد يجد في رباعياته رباعيةً تخلو من ذكر هذه العلاقة الثنائية بين العين والقلب، أو ذكر ما يتصل بها من الألفاظ الدائرة في فلك الحب كالشوق والجوى والكمد والهجر والضنى والسقم والألم، والسهر والبكاء؛ ولذلك يمكن القول بأن التعبير عن هذه العلاقة الثنائية يشكل لحمة الديوان وسداه.

فلا نجد ذكراً لعلاقة يكون سبيلها الأذن أو اليد أو الفم أو الأنف إلا نادراً نحو قوله، فيما يتصل بالفم[62]:

وحرمتنـــــي مـــــا كنـــــت آ مـــــل مـــــن ثنايـــــاك العـــــذاب

وكذلك قوله، جامعاً بين حاستي الذوق واللمس تقبيلاً ومصافحةً ومعانقة [63]:

ترشـــفت مـــن شـــفتيه عقـــاراً وقبَّلـــت مـــن خـــده جلنـــاراً
وصـــافحت مـــن نحـــره الياســـمين والـــورد والزهـــر والبهـــارا

وعانقـــــت منـــــه كثيبـــــاً مهـــــيلا وغصـــــناً رطيبـــــاً وبـــــدراً أنـــــارا

ولكن مع هذا فإن الشاعر لا يفتأ يذكر العين، فهو يرى أن من القبل ما سبيله اللحظ بالعين قائلاً[64]:

قبلتـــــــه بـــــــاللحظ مســـــــترقاً يـــــا طيبهـــــا لـــــو أنهـــــا قُبَـــــلُ

وإذا كان الذوق واللمس قد حظيا بقليل من الذكر، فإن الأمر مختلف مع حاستي السمع والشم، فلا ذكر لحديث المحبوب ومتعة الاستماع إليه، ولا ذكر لعطره أو طيبه، في حين لا يخلو منها شعر غيره من الشعراء، يستوي في ذلك العذريون وغيرهم، ولا شك أن العين أبعد هذه الحواس أثراً لدى الجميع، وإلى ذلك يشير ابن حزم بقوله: «واعلم أن العين تنوب عن الرسل ويدرك بها المراد والحواس الأربع أبواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس، والعين أبلغها وأصحها دلالة وأوعاها عملاً، وهي رائد النفس الصادق، ودليلها الهادي ومرآتها المجلوة التي بها تقف على الحقائق وتميز الصفات وتفهم المحسوسات، وقد قيل ليس المخبر كالمعاين»[65].

ونظراً لما تحتله العيون من مكانة عظيمة بين مظاهر الحسن والجمال الإنساني، ولما حباها الله سبحانه وتعالى به من القدرة النافذة على التأثير وبخاصة فيما يتصل بالعلاقة بين الذكر والأنثى، وانجذاب أحدهما نحو الآخر وما يكتنفها من وقدة العاطفة وحرارة المشاعر، ولما تضطلع به العيون من أثر كبير في هذه العلاقة؛ فقد حظيت في الشعر العربي، وبخاصة الغزل منه، باهتمام كبير افتن فيه الشعراء بالحديث عن العيون وجمالها وفتنتها، ومالها من تأثير غالب لا تقوى القلوب على مقاومته، أو الفرار منه؛ ولذلك فإن الشاعر في اهتمامه بالعيون، وربطه أسباب الحب بلحظاتها إنما يسلك سبيلاً معبداً طرقه قبله الشعراء، وذلَّلوا أكنافه حتى أصبح نهجاً لاحباً يتشابهون فيه كثيراً ويختلفون قليلا، غير أن شاعرنا، وإن كان لا يختلف عنهم، فإن له ما يميزه عنهم، وهذا يدفع إلى الأسئلة التالية:

ما الذي يشبههم فيه؟ وما الذي يميزه عنهم؟ وما سبب ذلك؟

من المعلوم أن حديث الشعراء عن العيون وما تتمتع به من الأوصاف الجميلة يتجلى في مظهرين: أحدهما يقوم على وصف العيون من حيث الشكل الخارجي كالسعة والصفاء، أو من حيث ألوانها كالحور والدعج والكحل والشهلة...، أما الآخر فيقوم على وصف العيون انطلاقاً من نظراتها وما تتسم به من قوةٍ أو ضعف. وحين نأتي إلى شعر خالد الكاتب نجده سائراً على سنن من سبقه من الشعراء في هذا الأمر؛ فقد وصف العيون من حيث السعة واللون، ولكن في أبيات معدودة لا تدل على اهتمام كبير بهذا الجانب، فلا نجد عنده وصفاً لسعة العيون سوى بيت واحد حين وصف فيه عين المحبوب بالدعج، وهو شدة سواد العين مع سعتها وذلك في قوله[66]:

أســـــــهرتني وهـــــــي راقـــــــدةٌ بـــــــاحورار العـــــــين والـــــــدعج

أما ما يتصل باللون فإن الغالب عليه لون واحد هو الحوَر نحو قوله [67]:

أحـــــور كالبـــــدر إذا مـــــا بـــــدا يهتـــــز مثـــــل الغصـــــن النـــــاعم

وقوله [68]:

قطـــع الزمـــان بـــي الهـــوى متلـــدداً متحيـــراً فـــي ملـــك أحـــور قاصـــر

وقوله [69]:

وســـقيم الجفـــون مـــن غيـــر ســـقم كـــان إلا مـــن أحـــور النظـــرات

ويجمع في بيت آخر بين الكَحَل والحور قائلاً [70]:

أيـــا كحيـــل الجفـــون بـــالحور مباينـــاً للجمـــال فـــي البشـــر

وفيما يتصل بوصف العيون انطلاقاً من قوة النظرة أو ضعفها، فإنه يمكن القول أن لهذا الجانب حضوراً لافتاً في شعره فقد احتفى به احتفاءً كبيراً، فالنظرة القوية ذات سلطان وقهر وغلَبة ترمي وتقتل، وتصيد وتأسر، ولا تقل النظرة الضعيفة الفاترة عن النظرة القوية تأثيراً؛ إذ تفعل في القلب فعل السحر فتملك وتستعبد. وإذا كانت النظرة أنواعاً: كالرنو واللحظ واللمح والرشق والشزر والرَّمْق والحدج...، فإن ما يشيع في شعره منها إنما هو اللحظ، وهو نظر غير متأن ولا مستبين، ولكنه شديد الوقع على قلب المحب، والشاعر فيما ذُكر لا يختلف عن غيره من الشعراء.

أما ما يميزه عنهم فهو التالي:

أ – أنه قصر أسباب الحب على العين دون سواها من الحواس، وجعلها أُس الحب الذي لا يقوم إلا عليه ولم يلتفت إلى غيرها من الحواس إلا نادراً، كما تقدم ذكره

ب – أنه يرى أن عين المحب هي السبب الأول في وجود الحب، ثم تليها عين المحبوب، في حين يصرف أغلب الشعراء عنايتهم إلى عين المحبوب

جـ – تكمن قوة عين المحبوب وشدة تأثيرها لديه في نوع النظرة، وما فيها من قوة أو ضعف، وليس في جمالها الشكلي الخارجي من حيث السعة والصفاء واللون.

السبب الذي يقف وراء ذلك:

يلاحظ أن الشاعر في حديثه عن العيون لم يكن مهتماً بما تتمتع به من جمال ظاهر ممثلاً في السعة والصفاء والألوان بقدر اهتمامه بالنظرة نفسها؛ لأنه يرى أن النظرة هي الحامل الأكبر لسر الحب، فهو شديد العناية بالنظرة التي هي فعل العين الناظرة لا بالوصف الذي تتمتع به، وهو أمر ينسجم مع رؤيته للحب وأسبابه؛ لأن ما يتجلى في عين المحبوب من الأوصاف الجميلة لا تأثير لها إلا عند ما تنظر، وذلك لما في النظرة من قدرة على التعبير عن الشعور والإخبار بمكنون الصدور، ولن تحظى هذه النظرة بالمكانة التي تستحقها ما لم تطَّلع عليها عين المحب التي تملك القدرة على التواصل مع عين المحبوب فتتلقى ما توحي به

نظراتها وتفهم ما تقوله لحظاتها، وإلا كان وجودها كعدمها؛ لأن «الذي يدفع أحد العاشقين إلى الآخر ويجعل من الغريبين شخصين متحابين يتبادلان التأثير إنما هو مقابلة ولو هنيهة على الأقل يكون فيها تبادل نظرتين ناطقتين عند التقائهما فالعين رسول تلك الجاذبية بين الأرواح»[71] وبناءً على ما سلف يمكن القول أن عين المحب، حين تطلق نظرها فتطلع القلب على تلك الأوصاف الجميلة، هي أول أسباب الحب وأهمها، وتأتي عين المحبوب بما لها من نظرة آسرة سواء كانت قوية أو ضعيفة لتحتل المرتبة الثانية في أسباب الحب، ولعل هذا ما جعل الشاعر يعتد بالنظرة لا بالأوصاف؛ لأنها أمر مشترك بين المحب والمحبوب؛ فنظرة المحب تقف القلب على مواطن الجمال وتغريه به، ونظرة المحبوب بما لها من قوة وسطوة، أو فتور وسقم تفعل في القلب فعلها، وعناية الشاعر بنوع النظرة من حيث الشدة والضعف وما تخلِّفه من أثر في القلب تشي بأن خالداً الكاتب من القائلين بوجود مناسبة روحية تجمع بين المحب والمحبوب، وأن السبيل الذي تنعقد من خلاله تلك العلاقة القائمة على المناسبة الروحية بين قلبيهما إنما هو نظرات العيون، وهذا ينم على أن سر المحبة وقف على ذلك التناسب أو التشاكل الروحي بين طرفي هذه العلاقة؛ فكل نفس تشتاق إلى مُشاكلها وهو ما يؤكده ابن القيم بقوله: «فإن شبه الشيء ينجذب إليه بالطبع، فتكون الروحان متشاكلتين في أصل الخلقة، فتنجذب كل منهما إلى الأخرى بالطبع»[72]، ولعل العين هي الحاسة الوحيدة المؤهلة لإقامة مثل هذا التجاذب الروحي؛ وذلك نظراً لما بين العين والروح من الصلة في الفكر العربي–الإسلامي، فثمة حديث شريف يؤكد وجود هذه الصلة جاء فيه قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: «إذا حضرتم الميت فغمضوا البصر فإن البصر يتبع الروح...»[73]، وفي هذا تخصيص للعين وربط لها بالروح دون سائر الحواس «وهو ما يؤدي إلى أن تكون اللذة الجمالية المتعلقة بالبصر هي الأفضل والأرقى بين اللذائذ الجمالية–الحسية...، بحيث يبدو للوهلة الأولى أن اللذة البصرية هي اللذة الحسية–الجمالية الوحيدة»[74]، وإذا ما عُلم أن عين المحب هي السبيل الذي تنفذ منه عين المحبوب إلى قلبه، أمكن القول، بناءً على ذلك، أن ظاهرة الحب تكاد تنحصر في العلاقة بين عين المحب وقلبه، ولقد كان الشاعر مدركاً نوعية هذه العلاقة، واعياً أبعادها؛ فهو يرى أن كلاً من عين المحب وقلبه يجني أحدهما على الآخر، لذا اتخذت هذه العلاقة بينهما حالةً من التوتر والمحاسدة والمخاصمة فكل واحد منهما يلقي باللائمة على صاحبه ويحمله وزر ما أصابه، فهما طرفا خصومة ما أحوجهما إلى حكم عدل يفصل بينهما، وقد أشار إلى ذلك بقوله[75]:

القلـــب يحســـد عينـــي لـــذة النظـــر والعـــين تحســـد قلبـــي لـــذة الفكـــر
يقـــول قلبـــي لعينـــي كلمـــا نظـــرت كـــم تنظـــرين رمـــاك الله بالســـهر
العـــين تورثـــه همـــاً فتشـــغله والقلـــب بالـــدمع ينهاهـــا عـــن النظـــر
هـــذان خصـــمان لا أرضـــى بحكمهمـــا فـــاحكم فـــديتك بـــين القلـــب والبصـــر

وفي إطار هذه العلاقة الثنائية بين العين والقلب نجد أن عين المحبوب تقف إلى جانب عين المحب في

مواجهة قلبه؛ لأسره والإضرار به يدل على ذلك قوله [76]:

عـــدَّ شـــوقي إليـــه ذنبـــاً عليـــه لـــــو تيقنـــــت لاعتـــــذرت إليـــــه
أنـــــا أذنبـــــت أو فتـــــور بجفـــــ نيـــه دعـــا مقلتـــي إلـــى مقلتيـــه
عينـــه أذنبـــت وعينـــي أســـاءت بفـــؤاد أضـــحى أســـير يديـــه

إن الأبيات المذكورة بما تحمله من نظر عقلي، و تأمل فكري في ظاهرة الحب، وأسبابه ودواعيه، وما يترتب عليه من نتائج تدل دلالةً واضحة على أن الشاعر كان منشغل الفكر بهذه الظاهرة ذا تأمل في طبيعة العلاقة القائمة بين العين والقلب، وما يصبغ هذه العلاقة من جدل وتوتر، وما يتصل بذلك من تحاسد وتخاصم، أو ذنب و إساءة بين طرفيها، وما ينشأ تبعاً لذلك من تساؤل عن الجاني و المجني عليه، الأمر الذي يؤكد أن حديث الشاعر عن الحب و ما يرافقه من الآمال والآلام لا يخرج عن هذه الثنائية التي طرفاها عين المحب ثم عين المحبوب من جهة، وقلب المحب من جهة أخرى؛ ولذلك يمكن القول بأن شعر خالد الكاتب لم يكن تعبيراً عن تجربة وجدانية ذاتية في الحب، في المقام الأول، بقدر ما كان عملاً تأملياً في ظاهرة الحب وأسبابها ونتائجها، و شعره يؤكد أن تساؤل المحب عن الحب ودهشته إزاء فتنته الغالبة الآسرة كان همه الأول. إنه صاحب دهشة وسؤال تتوزعه تلك المسافة الممتدة بين العين والقلب.

وكأني بالشاعر إنما أراد أن يكون حكماً بينهما، وأن شعره لم يكن، في جملته، غير تقليب ونظر في أبعاد هذه العلاقة، وكشف لأسباب تلك الخصومة رغبةً في الوصول إلى حكم عادل يُنتصر فيه للمظلوم، ويؤخذ على يدي الظالم، ولعله قد أعلن حكمه في هذه القضية من خلال شعره الذي كشف دون مواربة أن العين هي الجاني، وأن القلب هو المجني عليه.

وبناء على ذلك نصل إلى نتيجة مفادها أن ظاهرة الحب، كما يراها الشاعر خالد الكاتب، إنما تنحصر في هذه العلاقة الثنائية القائمة بين العين والقلب ولا تتعداها إلى سواها من الحواس

الهوامش والمراجع:

1- هو خالد بن يزيد، كنيته أبو الهيثم، خرساني الأصل بغدادي النشأة والإقامة، لقب بالكاتب بسبب مهنته فقد كان كاتباً في الجيش. غلبت عليه السوداء فوسوس في أخريات حياته، وتوفي في بغداد سنة262 ﻫ وقد بلغ من العمر أرذله. ينظر في ترجمته: المسعودي مروج الذهب، تحقيق قاسم الرفاعي، دار العلم، بيروت، 1989، ج3، ص349. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991، ج3، ص286. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الفكر بيروت، 1970، ج8، ص308. أما شعره فأغلبه رباعيات، وفي موضوع واحد هو الغزل. كان يقول الشعر في شجون نفسه، وليس في ديوانه من المديح سوى قصيدتين، وثلاث مقطوعات. أ ما الهجاء فليس فيه سوى مقطوعتين. شهد له ابن المعتز برقة شعره قائلاً:« شعره حسن جداً وليس لأحدٍ من الرقيق ما له » يُنظر طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1968، ص406. ، وقال عنه الشابشتي: «كان مليح الشعر رقيقه، لا يقول إلا في الغزل، ولا يتجاوز الأربعة الأبيات » يُنظر الديارات، تحقيق كوركيس عواد، ط2، دار الرائد، بيروت، 1986، ص15. وقال داود الأنطاكي: إنه «أحد كتاب الجيش في الدولة العباسية والمشهورين باللطف، والرقة، وحسن الشعر» ينظر تزيين الأسواق في أخبار العشاق، ج1، تحقيق محمد التونجي، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1993، ص296.

2- الكاتب، ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، ط1، مطبعة العاني بغداد 1967، ص 161 نقلاً عن أحمد محمد ويس، ثنائية الشعر والنثر في الفكر النقدي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا 2002، ص199

3- ابن سينا، فن الشعر من كتاب الشفاء، ضمن كتاب: فن الشعر لأرسطو طاليس، تحقيق عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1953، ص183 نقلاً عن أحمد محمد ويس، المرجع السابق، ص275

4- القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج1، قدَّم له وشرحه وفهرسه صلاح الدين الهواري وهدى عودة، د.ط، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان 2002

5- حسن، عبد الحميد، الأصول الفنية للأدب، مكتبة الأنجلو المصرية، 1949، ص72، نقلاً عن أحمد محمد الحوفي، الغزل في الشعر الجاهلي، د. ط، دار القلم، بيروت، ص212

6- عبد الله، محمد حسن، الحب في التراث العربي، سلسلة عالم المعرفة، العدد36، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ديسمبر 1980، ص 39

7- رومية، وهب أحمد، شعرنا القديم والنقد الجديد، سلسة عالم المعرفة، العدد 207، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مارس 1996، ص 180

8- عبد الله، السعيد محمود، المرأة في وجدان الشاعر، د ط، دار المعارف، القاهرة 1995 ص146

9- ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، تحقيق حامد أحمد الطاهر، ط1، دار الفجر للتراث، القاهرة 2005 ص65

10- طه، فرج عبد القادر، أصول علم النفس الحديث، ط6، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة 2005 ص142

11- ابن قيم الجوزية، روضة المحبين، مرجع سابق ص87

12- عواضة، رضا، أسرار المرأة في كلمات، ط1، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 1999 ص47

13- الكاتب، خالد، ديوانه، دراسة و تحقيق كارين صادر، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا 2006، ص360

14- الأفريقي، ابن منظور، لسان العرب، ط1، دار صادر بيروت، مادة﴿ لحظ ﴾

15- الكاتب، ديوانه، ص324

16- المصدر نفسه، ص213

17- المصدر نفسه، ص79

18- المصدر نفسه، ص99
19- المصدر نفسه ص 128
20- المصدر نفسه ص199
21- المصدر نفسه ص338
22- المصدر نفسه ص227
23- المصدر نفسه ص264
24- المصدر نفسه ص318
25- المصدر نفسه ص327
26- المصدر نفسه ص88
27- المصدر نفسه ص236
28- ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق إحسان عباس، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس 1992 ص133
29- الكاتب، خالد، ديوانه، ص252
30- المصدر نفسه، ص212
31- المصدر نفسه، ص216
32- المصدر نفسه، ص204
33- المصدر نفسه، ص93
34- ابن حزم، طوق الحمامة، مرجع سابق ص92
35- الكاتب، خالد، ديوانه، ص90
36- المصدر نفسه، ص354
37- المصدر نفسه، ص136
38- المصدر نفسه، ص340
39- المصدر نفسه، ص91
40- المصدر نفسه، ص134
41- ابن حزم، طوق الحمامة، مرجع سابق ص118
42- الكاتب، خالد، ديوانه، ص201
43- ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ج3، تحقيق محمد حامد الفقي، ط2 بيروت 1973 ص29
44- الكاتب، خالد، ديوانه، ص162
45- ابن قيم الجوزية، روضة المحبين، مرجع سابق ص248
46- الكاتب، خالد، ديوانه، ص98
47- المصدر نفسه، ص94
48- المصدر نفسه، ص163
49- المصدر نفسه، ص366
50- المصدر نفسه، ص355
51- الخليل، أحمد محمود، الكون الغزلي في الشعر الأموي بين السادية والمازوشية وتقاطعات الحب والحرب، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد 87، السنة22، صيف 2004 ص26

52- الكاتب، خالد، ديوانه، ص95
53- المصدر نفسه، ص117
54- المصدر نفسه، ص224
55- المصدر نفسه، ص145
56- المصدر نفسه، ص310
57- الأفريقي، ابن منظور، لسان العرب، مادة ﴿ فتر﴾
58- مشلح، عادل، العين من النظرة إلى الدمعة في الشعر العربي، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الأدباء والكتاب العرب، العدد394، السنة33، دمشق، 2004، ص148
59- الكاتب، خالد، ديوانه، ص290
60- المصدر نفسه، ص238
61- المصدر نفسه، ص314
62- المصدر نفسه، ص86
63- المصدر نفسه، ص171
64- المصدر نفسه، ص277
65- ابن حزم، طوق الحمامة، مرجع سابق ص126
66- الكاتب، خالد، ديوانه، ص96
67- المصدر نفسه، ص288
68- المصدر نفسه، ص174
69- المصدر نفسه، ص95
70- المصدر نفسه، ص161
71- لودفيج، اميل، الحياة والحب، ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف، مصر، ص18، نقلاً عن أحمد الحوفي، الغزل في العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص209
72- ابن قيم الجوزية، روضة المحبين، مرجع سابق ص66
73- الحاكم، محمد بن عبد الله، المستدرك على الصحيحين، ج ا كتاب الجنائز، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا،ط1 دار الكتب العلمية، 1990، ص503
74- كليب، سعد الدين، البنية الجمالية في الفكر العربي-الإسلامي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا 1997، ص241
75- الكاتب، خالد، ديوانه، 141
76- المصدر نفسه، ص361